التطور البشرى

للدكتور جواد على

ما هى مقاييس التمدن وأين هى مظاهره ؟ أهى فى حركات الإنسان وطراز ملابسه ومجموعة مظاهره الخارجية ، أم هى فى أثاث بيته وأشكال سيّاراته ووسائل راحته وعدد خدمه ، أم هى فى الإنتاجين العقلى والمادى للبشرية ؟ يختلف الجواب طبعاً على هذه الأسئلة باختلاف عقلية المرء ودرجة ثقافته . فجواب العلماء يختلف ولا شك عن جواب السواد الأعظم من الدهماء . وجواب الشرقى يختلف كثيراً عن جواب الغربى ، وكذلك جواب الفقير عن جواب الغنى

أما المقاييس العلمية فتستند طبعاً على أسس فنية منتظمة ، وقواعد منطقية محكمة ، لا تكتفى بالمظاهر ولا تقتنع بالظواهر ، لها أحكام خاصة ونتائج تستند على مقدمات وبراهين . و « وحدة التطور » فى حياة البشرية بالنظر للغة العلم هى « الكفاءة » والقابلية وقوة الابتكار ؛ وهى وحدة تقاس بها كفاية الأفراد كما تقاس بها كفاية الشعوب والأمم باختلاف الأجيال والعصور . فكلما أعرقت البشرية فى المدنية ازدادت قوة ابتكارها وتنوعت اختراعاتها وتشعّبتْ اكتشافاتها وتعقدت حياتها وزادتْ احتياجاتها عن مستوى حياة الإنسان السابق[1]

ولا تقتصر هذه الكفاية على الكفاية الروحية فقط ، بل تشمل الكفاية الجسمية والمادية أيضاً . ومعنى هذه الكفاية هو خلق جيل قوى جميل ، مثلاً ، ذى أعضاء وعضلات قوية متناسبة لا تدركه الأمراض ولا تؤثر فيه الجراثيم ، فهو يستطيع أن يقاوم ويقاوم . يتمرد على الطبيعة كما كانت الطبيعة تتمرد على الإنسان السابق . لها أهداف ومثل عليا كلما نال منها نصيباً طمع فى أخرى ؛ لا تقصر همته كما قصرت همة الشعوب المنقرضة[2]

والتقدم فى الناحية الثقافية معناه تقدم الإنسان تقدماً مطرداً فى دائرته المثلية مثل مثله العليا وأهدافه الأخلاقية ومطامحه فى الحياة وأساليب معيشته واحتياجاته البيتية بحيث تتعقد حياته الروحية وتصعب وتتنوع طرق تفكيره وطراز تعبيره عن أفكاره فى القول والكتابة ، ويبدع فى الإفصاح عن شعوره وما يجيش فى نفسه فى الموسيقى والشعر والتمثيل والغناء . وكلما تنوعت هذه وتشعبت وتميزت دلت هذه التطورات على تقدم ونمو وسير مع النواميس الطبيعية لهذا الكون . لذلك كانت احتياجات الشعوب المنحطة فى هذه الناحية ابتدائية بسيطة بينما هى قد تعقدت وتنوعت فى الأمم الأوربية المتقدمة تعقداً مهماً

وتطور البشرية دائماً من بشرية ذات قابلية معينة محدودة ، ومن بشرية ذات كفاية مقدرة ، إلى بشرية أكثر قابلية وكفاية هى نظرية العلماء الطبيعيين وأصحاب نظرية العالم الإنكليزى داروين والنظرية المعروفة باسم نظرية Malthusche Theorie[3] . وهذا التناسق الذى يحدث بمرور الزمن فى نظام البشر فيجمع شمل الحياة الإنسانية فى محيط معقد معين غير متباين بعد أن كانت الحياة غير متسقة متنافرة ، هو التطور المقصود فى نظر العالم الإنكليزى هربرت سبنسر Herbert Spencer[3] . وقد صور هذا التطور فى مدنية الإنسان الفيلسوفُ الألمانى هيكل بصورة ملفة من ملفات البردى تنفتح بصورة متوالية كلما انفتح دور فى حياة الإنسان المدنية حتى تنتهى بدرجة الكمال أو الإنسانية المطلقة . وقد أطلق على هذا الدور Totalität Als Menschheit[4] . وهذا التطور هو من العلامات الفارقة بين

(١) من أحسن الكتب التى ألفت باللغة الانكليزية فى هذا الموضوع هو كتاب « التقدم والفقر » للعالم الأمريكى الاقتصادى الشهير هنرى جورج (ولد عام ١٨٣٩م) ، وقد ترجم كتابه إلى معظم اللغات الحية ونال المؤلف شهرة علمية وسياسية عظيمة فى أمريكا وأوربا حتى ألف باسمه حزبا سياسياً أطلق على نفسه اسم « حزب جورج » . راجع Stiegmann Socialismus ص ٢٩ .

(١) راجع كتاب Fartschritt Und Armut تأليف الأمريكى الشهير Henry George . ص ٣٤٧ وكذلك كتاب قاموس الفلسفة لشميد ص ١٨٦

(٢) نفس المصدر . ٣٤٧

(٣) سبنسر وهو فيلسوف انجليزى ولد فى دربى Derby عام ١٨٨٩م وتوفى عام ١٩٠٣ م وهو من الفلاسفة الذين لعبوا دوراً هاما فى العالم الفكرى فى انكلترة وقد ترجمت معظم كتبه إلى مختلف اللغات الأوربية

(٤) راجع كتب الفيلسوف الألمانى (Hegel) والكتب الكثيرة التى وضعت عنه . وهناك مذهب خاص فى الفلسفة عرف باسم (مذهب هيكل) وله أتباع يعرفون (بالهيكليين) Hegelianer Hegelianismus

الحيوان والإنسان وبين الشعوب المتمدنة وبين الشعوب المتوحشة . ونحن لا نكاد نشعر بظواهر التطور فى حياة الأمم الابتدائية والمتوحشة بينما نلمس ذلك بصورة جلية فى الأمم المتقدمة التى يظهر فيها التطور كلما تقدمت درجة فى المدنية . فوضوح التطور أو غموضه إذاً مقياس يعتبر من أهم المقاييس التى تستعمل لقياس مدنية أمة من الأمم وتقدير منزلتها من بين منازل شعوب الأرض

ولا بد أن يقترن ذلك التطور كما قلنا بالابتكار وبالإنتاج ويرفع مستوى المعيشة لأفراد الأمة Standard والرفاهية . ولفظه Smartness كما يطلق على ذلك الأمريكيون[1] ولذلك يعتبر الرأى العام الإنكليزى نفسه أرقى فى المدنية من الفرنسيين لأن الإنكليز أقدر منهم على الابتكار والإنتاج وعلى مجابهة الحوادث ، وأكثر منهم قابلية وكفاية بصورة عامة ، ودرجة الرفاهية لديهم أعلى من نسبة درجة الرفاهية لدى الفرنسيين[2]

وكلما كان هذا التطور فى المجتمع عاماً شاملاً كانت جذور الأمة فى المدنية أقوى فيها وأرسخ ، وأقدر على مجابهة مشكلات الأمور وحوادث الزمان ، وأحكم فى السيطرة على أجزاء المملكة وعلى تكوين رأى عام متماسك متقارب فيها لا يندك بسرعة . وهذا هو السر فى انهيار بنيان شعوب البلقان مثلاً بسرعة بينما نجد الأمم الجرمانية والإسكاندينافية قوية تقاوم البشر والطبيعة على حد سواء

وهو من العلامات الفارقة بين الحضارات القديمة حتى القرون الوسطى وبعد ذلك ، وبين الحضارة الحديثة والتى سنليها . كان التطور فى الزمان السابق قد اقتصر على طبقة معينة من الناس وهى الطبقات العليا ، أعنى رجال القصر وحاشية الحكومة ورجال اللاهوت . أما الطبقات الدنيا فكانت فى مستوى فكرى روحى منحط . لذلك لم تكن حلقات الأمة محكمة ، ولم يكن المستوى العقلى فيها متشابهاً أو واحداً . لذلك كانت خواص الأمة العقلية وخواصها الفسيولوجية منحطة واطئة ، لأنها لم تكن متطورة ، فلما أخذت الطبقات الدنيا تشارك الطبقات العليا فى التعليم وتشاركها فى وظائفها العليا وحقوقها المكتسبة أدركت الأمراض التى كانت تحيط بها والأخطار التى كانت تتهددها ، فاحترست منها وأخذت تقاومها مقاومة رجل عالم خبير فقوّت عقلها وقوّت جسمها فى وقت واحد[1] . ولذلك خفّ ضغط الشعوب المتوحشة على الشعوب المتمدنة ، ثم زال عنها بالتدريج . كان أهم مميزات حضارة الإنسان الأول هو ضعف تلك الحضارة من حيث ناحية الدفاع تجاه الأمم المتوحشة إذ كانت القوة للعضلات وكثرة العدد . فلما تطور الإنسان وظهرت حضارة القوة انعكست الآية وأصبحت الشعوب المتوحشة فريسة الأمم المتمدنة القوية ، وأصبحت الأمم المتمدنة هى التى تملى إرادتها على الشعوب المتوحشة وتكيفها كيف تشاء ؛ لأن القوة لم تعد قوة العضلات ولا قوة الحجارة والطين ، إنما هى قوة التكيف والتطور والابتكار والمهارة . وأصبحت الأمم المتمدنة لا تقاتلها إلا الأمم المتمدنة . والأمم المتمدنة هى الأمم التى تصمد أكثر من غيرها تجاه مطرقة الأعداء فى أية ناحية من نواحى الحياة

حقق التطور البشرى كثيراً من أحلام البشرية وفك بعض طلاسم الكون والوجود ، ولكن هل يستمر هذا التطور فى سيره السريع هذا ؟ وهل يأتى يوم تحقق فيه البشرية كل ما كانت تحلم به أو تصبو إليه ، فتتكون على الأرض البشرية المثلى وينعم الإنسان فى هذه الجنة الأرضية بالخلود والنعيم ؟ آمن بعض ذوى الخيال الواسع من العلماء بهذه الفكرة الجميلة فحاولوا قديماً وحديثاً استغلال العلم واستعباد العقل للعثور على سر الحياة واكتشاف لغز الموت لمقاومته ، واقتنع آخرون بنظرية إطالة عمر الإنسان مدة تزيد على مدة العمر الطبيعى . وأبى آخرون إلا أن يهتدوا إلى سر الكون ، وإلا أن يتوصلوا إلى إدراك كنه ما نسميه بالطبيعة ، وأن يجدوا لهم سبيلاً إلى الشمس والنجوم أو طرقاً لمعادته مع سكان الأجرام العلوية على الأقل[2] .

(١) راجع كتاب Fartschritt und Armut ص ٣٤٧ ، وكتاب The Histor of long civi. 1932 ص ٣٠٤

(٢) نفس المصدر وراجع أيضا كتب تاريخ الحضارة ، أو علم النفس الشعوب Volkerpsy chology

(١) راجع كتاب Fortschritt ص ٣٦٢ ، وكذلك كتاب العالم Walter Bagehot وعنوانه Physics And Politics

(٢) راجع كتاب Fortschritt ص ٣٤٩ راجع أيضا قاموس الفلسفة لشميد ص ٤٠٤ . وكتب الفيلسوف الألمانى الشهير فرانس مولر لاير Franz Müller Layer (١٨٥٧ — ١٩١٦) ، والفيلسوف Golscheid Rudolf (١٨٧٠ — ١٩٣١) وهو صاحب نظرية الانسان الاقتصادى

ولكن دلت التجارب على أن كل تطور يعقبه تطور من جهة أخرى لا يرغب فيه الإنسان . قضى علماء الطب على معظم الأمراض القديمة ، ولكن للمعامل الكبرى والمدن الضخمة والسكك الحديدية ونجمة الآلات والسرعة الرهيبة ، كل هذه جاءت إلى البشرية المتطورة بأمراض لم يكن يعرفها إنسان الماضي ، وستجيء بأمراض ولا شك لإنسان المستقبل لم نكن نعرفها نحن جزاء تطوره هذا .

وقد جاءت الاختراعات والثورة المادية بعوائد اجتماعية زلزلت بنيان البيت القديم وقوضت دعائم قدسياته الاجتماعية وقواعده الأخلاقية التي كان يستمتع بها . وجاءت بعادات جديدة فرضتها عليه قرضاً ، ووسع هذا التطور مجال الحروب فجعلها عالمية وقد كانت موضعية ، وجعلها آلية تكلف الإنسان ثمناً باهظاً تبتلع معظم ميزانية الدولة فلا تنتهي الحرب حتى يدخل في حرب أخرى جديدة أعم من تلك وأعظم[1]

لذلك تشاءم بعض الفلاسفة من هذا التطور فأعلنوا ثورتهم على التطور الحديث والمدنية الحديثة فاعتزل الفيلسوف الشهير شوبنهور هذا الكون ومن فيه متمثلاً بآراء فلاسفة الهنود ساخراً من كل شيء إلا من كلمة الآمين الذي أطلق عليه كل العالم Welt gaum ليعبر بذلك عن مقدار استخفافه بهذا العالم[1]

وتبرم فيلسوف آخر هو الفيلسوف التشاؤم شبنكلر من الحضارة الحديثة ومن الثقافة المادية التي صبغت كل شيء حتى المثل الأخلاقية بالصبغة المادية ، وهدد بناء أوربا بسقوط عاجل سريع في أعجب الفلسفي الجديد « سقوط الغرب »[2] وقد أبان فيه أن الإنسان قد تطور تطوراً سريعاً جداً

أما من حيث الناحية الروحية فقد سارت البشرية فيها ولا شك بخطوات سريعة أيضاً ولكن إلى الوراء ، ونادى الفيلسوف الدانماركي كيركه كارد Sören Kierkegaard أبناء قومه بعبارة تنم عن نفسية أوربا الحديثة : « هيا إلى الدين »[3]

يوسف كمال

(١) راجع الكتب المؤلفة في حياة هذا الفيلسوف وكذلك الكتب التي ألفها نفسه ليعبر بذلك عن آرائه الفلسفية . راجع شميد قاموس الفلسفة مادة شوبنهور

(٢) وقد كان لكتابه هذا الذي صدر في جزأين صدى عظيم في أوربا حتى اقتناه كل رجل مثقف في تلك القارة وقد ترجم إلى أمم اللغات

(٣) وهو الفيلسوف Sören Kierkegaard (١٨١٣ — ١٨٥٥م) من الفلاسفة الذين أحدثوا انقلاباً كبيراً في العقلية المسيحية في أوربا . كان يرى وجوب خلق مسيحية جديدة على أسس فلسفية حديثة

(١) راجع كتب فلاسفة ما بعد الحرب العظمى . لا سيما كتب المتشائمين منهم والناقمين على الحرب

إلى هواة المغناطيسية والى المصابين بالاضطرابات العصبية

ترسل تعليمات مجانية عن شرح طرق وتدريبات تعلمك كيف تتخلص من الخوف والوهم والخجل والكآبة والوسواس ومن جميع الاضطرابات العصبية والعادات الضارة كشرب الدخان ومن العلل والآلام الجسدية وفي تقوية الذاكرة والإرادة ودراسة الفنون المتناطيسية لمن أراد احتراف التنويم المغناطيسي والحصول على دبلوم في هذا الفن اكتب إلى الأستاذ ألفريد توما ٧١٩ شارع الخليج المصري بغمرة بمصر وارفق بطلبك ١٥ مليما طوابع للمصاريف فتصلك التعليمات مجاناً .

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية : السنة الأولى في مجلد واحد ٥٠ قرشا ، و٧٠ قرشا عن كل سنة من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة في مجلدين . وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشا في الخارج عن كل مجلد .